Available online at http://jgu.garmian.edu.krd

Journal of University of Garmian

https://doi.org/10.24271/garmian.199214

قراءة أخرى لمعياري الطبع والصنعة في القرن الثالث الهجري

هيرش محمد أمين [1] ، سعدون حميد صالح [2]

قسم اللغة العربية ،كلية اللغات ، جامعة السليمانية

قسم اللغة العربية ، كلية التربية ،جامعة كرميان

Article Info

Received: April , 2019

Revised: April,2019

Accepted:Jine ,2019

Keywords

الطبع ، الصنعة ، التكلف ، الارتجال ، التنقيح .

Corresponding Author

hersh.amin@univsul.edu.iq

الخلاصه

ركز البحث على ثنائية الطبع والصنعة في القرن الثالث الهجري ، وهي من القضايا النقدية المهمة التي افرزتها خصومة القدماء والمحدثين لدى نقاد ذلك العصر ، ووقفوا أمام هذه القضية ردحاً من الزمن ، وتستمر هذه الجدلية إلى يومنا هذا . وقد أخطأ عدد من نقاد هذا العصر في التميز والفصل بين مصطلح الطبع والارتجال وبين الصنعة والتكلف ، وعدوا الارتجال والبداهة مرادفا للطبع كما عدوا الصنعة مرادفاً للتكلف ، وهذه نظرة سقيمة وغيرسليمة في العملية النقدية .

المقدمة

تعد قضية الطبع والصنعة من القضايا النقدية التي حظيت باهتمام نقاد العرب القدامى لا سيما نقاد القرن الثالث الهجري . وقد أشاروا إلى هذه الثنائية كمعيار نقدي في تقسيم الشعراء وتحديد منازلهم ، واختلفوا فيها اختلافا كبيراً . وجعلوا الطبع والفطرة أصلاً عند الشاعر ، وهو من المواهب الله التي وهبها للإنسان ، أما الصنعة فهي ممارسة العمل الإنساني لتثقيف تلك المواهب الموجودة عند الشاعر ، إذ الصنعة تلازم الطبع وتناصره . أما التكلف فهو نقيض الطبع والصنعة أيضا ، لأن التكلف يظهر لدى الشاعر نتيجة ضعف ملكة الشاعر وقدرته الفنية . ولغرض الوقوف على هذه القضية بشكل دقيق قمنا بدراسة هذه الثنائية في القرن الثالث الهجري واستعمالاتها عند نقاد هذا القرن . ومن أجل الوصول إلى تلك الغاية بدأنا بالأصمعي ومنتهياً بابن المعتز. اقتضت مادة البحث إلى عدم تقسيمه إلى مباحث ومطالب .

الطبع والصنعة في القرن الثالث الهجري

تعد ثنائية الطبع والصنعة من المعايير الأساسية في تقسيم الشعراء وتحديد منازلهم في

القرن الثالث الهجري . إنّ تعامل نقاد هذا القرن مع هذه الثنائية كان تعاملا متفاوتا ، منهم من رفض الصنعة وآثر الطبع عليها ، ومنهم مَن رفع من شأن الصنعة وأخذ بها ، ومنهم مَن لم يميز بين الصنعة والتلكف وعدهما صفة مذمومة لدى الشاعر ، وكان يُتهم المحدثين بالتكلف والصنعة من قبل نقاد القرن الثاني والثالث الهجري ورواته مثل أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وغيرهما . ولكن هناك فرق شاسع بين كل من مفهومي الصنعة والتكلف . فالصنعة كانت اقتدار الشاعر مع الطبع لأن هناك كثير من الشعراء الجاهلية نقحوا أشعارهم وثقفوه من أجل إلتحام الاجزاء واقتران بعضها مع بعض والقضاء على الفجوات في تسلسل أبيات القصيدة بخلاف التكلف الذي يحس به الناقد والعالم حين سماعه له ، لأنه لا يخفي عن أهل العلم لما فيه من شدة العناء وكثرة الضرورات الشعرية والتكرار الزائد وحذف ما لايحذف وإضافة ما لا يجب أن تضاف اليها . .

يعدُّ الأصمعي (ت 216ه) من أوائل النقاد الذين أشاروا إلى هذا المعيار لتقسيم الشعراء وإصدار الحكم عليهم في كتابه فحولة الشعراء . لانه لم نجد عند أبي عبيدة (ت 210ه) ما يدل على معيار الطبع والتكلف لضياع كتابه وعدم وصوله إلينا . ولما سأل أبو حاتم السجستاني (ت 255 ه) شيخه الأصمعي عن لبيد بن ربيعة وشعره ، فقال له : " ليس بفحل ، وقال : رجلاً صالحاً ، كأنه ينفي عنه جودة الشعر ، وقال لي مرة : شعر لبيد كأنه طيلسان طبري يعني انه جيد الصنعة وليس له حلاوة " . [i]

من خلال قراءة ورؤية أبي حاتم لحكم شيخه نستشف أنّ نزع صفة الفحولة من لبيد بن ربيعة هي أنه جيد الصنعة ، وإن لم يقل متكلف لأن الأصمعي كان يكره كل ما يخالف الطبع والارتجال لدى الشاعروإن كان شعره كله جيداً ومحكماً . كما يروي ابن قتيبة (ت 276ه) نصاً للأصمعي : " بأن زهيروالحطيئة وأمثالهما من الشعراء عبيد الشعر لأنهم نقحوه ، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعون " . [ii]

وهذا يعني أن الأصمعي جعل صنيع زهير والحطيئة وما شابههما مخالف لمذهب الطبع ، وموافق لمذهب الصنعة والتكلف ومرادف للتنقيح والتهذيب .

من الواضح أنّ الأصمعي لم يميز بين مفهومي الصنعة والتكلف فوجدهما مذموماً ونقيضاً لمفهوم الطبع . وكان يكره كل منهما في الشعر ، إذ وجد أن الحطيئة عبد لشعره الذي " عاب شعره ، حين وجده كله متخيراً منتخباً مستوياً بمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه " . [iii]

إنّ كثيراً من نقاد العرب قديما وحديثاً لم يفهموا مفهوم الطبع والصنعة ولم يميزوا جيداً بينهما ، فعدّوا الصنعة مخالفاً للطبع . ووضعوا الصنعة مرادفاً للتكلف . وجعلوا من الصنعة شيئاً مذموماً وقبيحاً كما ينظرون إلى التكلف . ولذلك بعض من نقاد القدامى كرهوا شعر زهير والحطيئة وأشباهما ، كما قال الأصمعي عنهما عبيد الشعر . ولا يتعارض الطبع مع الصنعة ، بل يتفقان ويتلازمان ، فيقوي أحدهما بالآخر ويشتد . [iv]

إن سلامة الطبع وجودته لا تعني بحال من الأحوال دوام الإجادة في نظم الشعر وقريحته ، وهذا ما جعل الأصمعي أن يقول في الحطيئة : " وجدت شعره كله جيداً فدلني على أنه يصنعه وليس هكذا الشاعر المطبوع ، إنما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه جيده ورديئه " . [v]

إذاً يرى الأصمعي أن الاستقرار في مستوى الجودة لدى الشاعر دون تفاوت مستوى الشعر بين الجودة والرداءة من إمارات الصنعة والتكلف . وربما نفي الفحولة عن لبيد وكعب بن زهير والحطيئة كان بسبب الصنعة وتهذيب أشعارهم ، فضلاً عن تقليله من شأن زهير بن ابي سلمى وسخريته به ، لأنه كان من رواد مدرسة الصنعة والتهذيب . و نقل قول أبي عمرو بن العلاء بحق زهير " ما يصلح زهير أن يكون أجيراً للنابغة " . [vi]

لذلك نجد أنّه يفضل النابغة الجعدي ورؤبة لأن أشعارهما متفاوتاً في المستوى الجودة ، كما نقل الجاحظ (ت 255 ه) قولاً له : " لولا أنّ الشعر قد كان أستعبدهم ، واستفرغ مجهودهم ، حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ، ومَن يلتمس قهر الكلام ، واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبوعين ، الذين تأتيهم المعاني

سهواً رهواً ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً وإنما المحمود كشعر النابغة الجعدي ، ورؤبة ، ولذلك قالوا في شعره : مطرف بآلاف وخمار بواف " .[vii]

و في رواية أخرى يتبين موقف الأصمعي أكثر وضوحاً من التكلف وشعر المحدثين من خلال رواية اسحاق بن ابراهيم الموصلي (ت 235 هـ) الذي قال : " أنشدت الأصمعي :

هل إلى نظرة منك سبيل فيبل الصدى ويشفي الغليل .

إن ما قلَّ منك يكثر عندي و كثير ممن تحب القليل

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني ، لمن تنشدني ؟ فقلت : إنهما لليلتهما ، فقال : لا جرم والله إن اثر التكلف فيهما ظاهر " .[viii]

وهذا أيضا يدل على موقف الأصمعي من التكلف ورداءة الصنعة لدى المحدثين الذين تعصب ضدهم بخلاف الشعر الجاهلي الذي عدّه مطبوعاً وعفوياً . لذلك يرى أنّ تهذيب الشعر كان ناتجا عن ضعف السليقة اللغوية .[ix]

وجاء في رواية أخرى بشكل الخبر التقريري ، دون أن يصدر حكماً على الراجز، كقوله : " كان حميد الأرقط يشذب الرجز وينقحه وينقيه " .[x] يرى في هذه الرواية أن حميد الأرقط كان ينقح أراجيزه ويثقفه .

ويتضح أخيرا موقف الأصمعي من ثنائية معيار الطبع والصنعة من خلال ما عرضناه من نصوص وروايات بأن استقرار الشعر في مستوى الجودة تدل على جودة الصنعة وهي لا تعني جزالة الشعر وحلاوته ، وان التهذيب والتنقيح يدلان على التكلف _ وإن لم يميز بين جودة الصنعة والتكلف _ ولذلك ينبغي على الشاعر أن يلتزم بجانب القريحة والفطرة لأنهما يدلان على الموهبة الحقيقية والأساسية لدى الشاعر.

أما ابن سلام (ت 231 هـ) فلم يعن في طبقاته بثنائية الطبع والصنعة (التكلف) ولم يبين موقفه منهما إلا أنه وجد أن الشعر والنقد صَناعة كغيره من الصناعات يعرفها أهل العلم ، كقوله : " وللشعر صَناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصَّناعات : منها ما تثقفه الأُذُن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان " .[xi]

إذ " قرر ابن سلّام ان للشعر ونقده صناعة ، وإنّ له ثقافة يعرفها أهل العلم به ، كسائر أصناف العلوم والصناعات " .[xii] فيرى شوقي ضيف أن الشعر الجاهلي" كله شعر مصنوع ، فيه أثر التكلف و الصنعة " .[xiii] من الواضح أن هذا اتهام بحق الشعر الجاهلي وليس هناك ما يثبت ذلك.

وقد وصف ابن سلام النابغة بأن: "شعره ليس فيه تكلف" [xiv] يبدو أن عدم التكلف في أشعاره من أسباب منزلته الشعرية لدى ابن سلّام وغيره من النقاد .

وقال اصحاب النابغة لتقديمه على الشعراء بقولهم : " كان أحسنهم ديباجةً شعر، وأكثرهم رونق ِكلام ٍ، وأجزلهم بيتاً ، كأنَّ شعره كلام ليس فيه تكلف " .[xv]

ويرى ابن سلّام أيضاً أن النابغة أحسنهم صَنعة شعر ، وأكثرهم تفوقا في صناعة الشعر ، وينفي عنه صفة التكلف والتصنع المذموم . ويتبين ثقافة ابن سلّام في هذا النص في تميزه بين الصَنعة والتكلف ، لأن الصَنعة تناصر الطبع وتلازمه وليس مرادفا للتكلف كما ظن بعض نقاد القدامى . ف" الطبع والصنعة عاملان متفاعلان متكاملان ، لا غنى لأحدهما عن الآخر لاتمام الصورة الأدبية المطلوبة ، وإبرازها في أحسن ما يكون " .[xvi]

وفي نصوص التي وردتنا من كتاب طبقات الشعراء (المفقود) لدعبل الخزاعي (ت 246 هـ) حصلنا على إشارات ولمحات واضحة تدل على معيار الطبع والصنعة لديه ، ومنها ، حينما ذكر آل أبي حفصة فقال عنهم : " كل مَن قال الشعر من آل ابي حفصة بعد مروان واخوته وولد ولده فمتكلف ، وقد جهدنا أن نجد لهم بيتاً نادرا فلم نجده " .[xvii]

فهذه إشارة واضحة بأن مروان بن أبي حفصة و إخوته وذريته وآله كانوا يتكلفون في الشعر فضلاً عن شهرتهم في فضاء الشعر. وإن لم يتفاضل دعبل بين طبقات شعرائه ولكنه أشار إلى مسالة التكلف والصنعة .. وربما هناك رؤية

نقدية واضحة في هذه المسألة لو كان الكتاب بين أيدينا . .

أما الجاحظ فبيّن موقفه من ثنائية الطبع والصنعة ، وأطلق على العرب صفة البداهة والارتجال بقوله : " وكل شيء للعرب قائماً هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة أو مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام .. فتأتيه المعاني ارسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقده على نفسه ، ولا يعلمه أحد من ولده ، وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون " . [xviii]

يبدو أنّ الجاحظ في هذا النص يقصد شعراء العرب القدامى الذين عاشوا في العصر الجاهلي لاسيما في البادية ، لأنّه وصفهم بالأمية لذا يقولون بطبعهم دون تكلف وعناء ، بخلاف شعراء المحدثين . ويؤكد ابن رشيق ذلك بقوله : " والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القوافي ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض " . [xix]

وفي نص آخر يقسم الشعراء على معيار الطبع والصنعة و يوضح مكانة اصحاب الصنعة والتكلف فيه ، ويقول عنهم : إنّ " الشعر استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ومَن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهواً رهواً، وتنثال عليهم إنثيالا " . [xx]

نستنتج من هذا النص أن الجاحظ قسم الشعراء على معيار الطبع والصنعة . وكان يؤثر الطبع ويفضله على الصنعة والتكلف والتنقيح .

ثم ذكر من الشعراء المولدين الذين غلب عليهم الطبع بقوله : " والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلي ، والسَّيِّد الحِميري ، وأبو العتاهية ، وابن أبي عيينة " . [xxi] ثم يذكر ما ذهب إليه بعض الناس في إضافة بعض الشعراء إلى هؤلاء المطبوعين بقوله : " وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل ، وسَلْماً الخاسر ، وخلف بن خليفة " . [xxii] وأضاف بقوله أنّ : " أبان بن عبد الحميد اللاحقيُّ أولى بالطبع من هؤلاء وبشار أطبعهم كلِّهم " . [xxiii]

وفي صنعة الشعراء قال في البيان والتبين بقوله : " ومن الشعراء العرب مَن كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً ، وزمناً طويلاً ، يردّد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقّلب فيها رأيَه اتهاماً لعقله وتتبُّعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيَه عياراً على شعره : إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله سبحانه تعالى من نعمته . وكانوا يُسمُّون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلَّدات ، والمنقَّحات ، والمُحكَّمات ، ليصير قائلها فحلاً خِنذيذاً ، وشاعراً مُفْلقاً " . [xxiv]

نستشف من هذا النص أن الجاحظ اتهم أصحاب الصنعة في بداية نصه باتهامهم لعقلهم وترددهم في بيان رأيهم وانتاج شعرهم ، ولكن في نهايته رفع من شأنهم لكي يصبح أصحاب هذه القصائد أن يكونوا فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً . وهذا يعني أنهم يحصلون على منزلة الأولى والثانية في سُلّم الشعراء . .

ويرى الجاحظ أنّ الصنعة تلازم شعر المديح دون غيره ، لأن المديح تلازمه الصنعة التي تثبت جودتها في الأداء الفني ، والطبع يلازم دون المديح ، إذ يقول : إنّ " مَن تكسَّب بشعره والتمس صلات الأشراف والقادة وجوائز الملوك والسادة في قصائد السماطين وبالطوال .. لم يجد بداً من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما ، فإذا قالوا في غير ذلك ، أخذوا عفو الكلام وتركوا الجهود ، ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب " . [xxv]

ويرى شوقي ضيف أنّ الجاحظ يناقض نفسه في دعوته الذي وصف العرب بأن كل شيء لهم هو بديهة وارتجال وليس لديهم معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ومشقة وتعب .. ولذلك فضل العرب على غيرهم . ثم يناقض نفسه بما وصف طائفة عند العرب بصناعة الشعر وتهذيبه وتنقيحه .. [xxvi]

ويرى الباحث أنّ ما قاله شوقي ضيف في مبالغة الجاحظ في وصفه للعرب كان محقا وصائباً ، لأنّه من الواضح " أن الجاحظ بالغ في

وصف الموهبة العربية والطبع العربي ليرد على الشعوبية ، فإذا العرب يقولون متكلفين ، وأكبر الظن أنّه لم يكن جاداً حين ذهب هذا المذهب ، إنما هو بصدد أن يفضل العرب على غير العرب " . (xxvii)

ولكن نخالفه في اتهامه للجاحظ بأنّه يناقض نفسه بنفسه لأن " الجاحظ عمم الطبع في نصه الأول ، حينما ذهب إلى أنّ كل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال .. وأنّهم مطبوعون لا يتكلفون . ثم خصص الصنعة في نصه الثاني ، ويكفي أنه بدأ هذا النص بقوله : (ومن الشعراء العرب ..) وهي عبارة تفيد التخصص ، أي أنّها عبارة تختص فئة معينة من الشعراء . وهنا يتضح أنّ الجاحظ لم يعارض العام بالعام حتى يحمل كلامه على التناقض ، بل عارض الجاحظ العام بالخاص وهذا يحمل على الاستثناء ، وليس من التناقض في شيء " . (xxviii)

ومن غريب الأمر أنّ شوقي ضيف قد وصف الشعر الجاهلي بالصنعة والتكلف ، بقوله : " كله شعر مصنوع فيه أثر الصنعة والتكلف " . (xxix) إن اتهام الشعر الجاهلي بانعدام الطبع والسجية وغلبة الصنعة والتكلف عليه ، تهمة كبيرة وخطيرة بحق الشعر الجاهلي لأنّ اتهام الشعر الجاهلي بهذا الشكل من الشمولية والتعميم أمر لا يقبل به لأنه بعيد عن الصحة والمنهجية . .

ونجد فضاء ثنائية الطبع والتكلف (الصنعة) عند ابن قتيبة أكثر اتساعاً وإلماماً من بقية نقاد هذا القرن . و وقف موقفاً واضحاً من هذه الثنائية ، وقسم الشعراء على أساسها ، إذ قال : " ومن الشعراء المتكلف والمطبوع " . (xxx) وبدأ بالشاعر المتكلف و قال : " فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ونقّحه بطول التفتيش ، و عاد فيه النظر بعد النظر ، كزهير والحطيئة . وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولي المنقح المحكك . وكان زهير يسمى كبر قصائده الحوليات) . (xxxi)

إذاً فالمتكلف في نظره هو " الذي يهذب الشعر وينقحه ويحرره ، كما كان يفعله زهير والحطيئة " . (xxxii) ويتهم الباحثون ابن قتيبة في هذا النص بأنّه لم يميز بين مفهومي الصنعة والتكلف بدليل أنّ الذي ذكره في النص يدل على علامات الصنعة وليس التكلف . لأن تقويم الشعر وتنقيحه وإعادة النظر فيه ومراجعته ليس من علامات التكلف . ومن الواضح أنّ زهير والحطيئة لم يكونا من المتكلفين . (xxxiii) والحقيقة أنّ " اختلاط التكلف بالصنعة أمر لم يبتدعه ابن قتيبة ، بل سبقه إليه الأصمعي والجاحظ " . (xxxiv)

عاش ابن قتيبة في عصر ظهر فيه التكلف والتصنع وأصبح ظاهرة لدى شعراء زمانه ولهذا تناول هذه الظاهرة التي شغلت النقاد بها ردحا من الزمن . لذلك وضح مفهوم التكلف ثم بيّن موقفه منه وقسم الشعراء عليه إلى قسمين ، الأول : هناك شعراء قاموا بتثقيف قصائدهم وتهذيبها وتنقيحها لعله يعثر على خطأ أو هفوة أو فجوة فيها قبل أن تذاع وتنتشر بين الناس . ثم يعيد الكرة مرة أخرى لو أقتضى الحاجة إليها حتى حولاً كريتا (عاماً كاملا) . وظهور هذه المدرسة تعود إلى العصر الجاهلي أمثال أوس بن حجر وزهير بن ابي سلمى والحطيئة وكعب بن زهير وعدي بن الرقاع وممّن سلك مسلكهم . وأتباع هذه المدرسة تنظم القصيدة خلال حول كامل على مهل وتريث دون عجالة . لأنه لابد للشاعر ان يلقى النظرة الاخيرة على قصيدته بعد بنائها ليرمم هذا البناء الذي شيده بالتثقيف والتنقيح . وهذا لألغاء ما غثّ من الأبيات ورثّ من الألفاظ والمعاني وليقتصر على حسن جميل منها ، حتى تستوي أجزاؤها . (xxxv)

وقد ورد في العمدة ابيات تنسب لامرئ القيس يصرح فيها عن تصنعه وتنقيحه حينما ينظم قصائده واشعاره ، وهذه هي الأبيات : (xxxvi)

أذود القوافي عني ذيادا ذياد غلام جريء جرادا

فلما كثرن وعنينه تخير منهن شتى جياده

فاعزل مرجانها جانبا وآخذ من درها المستجادا

إذا فهذا هو اشعر شعراء الجاهلية _ إذا كان صحيحا – يصنع أشعاره وينقحه عن نفسه ،

ينبغي أن نلاحظ هنا أنه لم يكن هدف الأقدمين واصحاب الصنعة من التنقيح أن يبدلوا لفظة بأخرى ، ليضمنوا في اللفظة الجديدة جناساً أو طباقاً أو زخرفة أو تنميقاً كما يفضلها بعض المحدثين ، ولكن هدفهم كان فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وابرازه ، واتقان بنية الشعروعقد القوافي ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض . بل كاد نقاد العرب يجمعون على ان الشاعروإن كان عبقرياً ، يعود إلى شعره ويقومه ويهذبه ويغير من قوافيه إذا كانت قلقة نافرة ، ومن عبارته حتى تسلس وتنقاد ، ويبدل من كلماته ما يرى وجوب تبديله ، حتى يتم الربط بينهما في تسلسل واضح ، ويزيد في القصيدة بين الأبيات ما يسد الفجوات ، ويكمل المعاني الناقصة .[xxxvii]

وكما يؤكد صاحب الصناعتين أن " تخير الألفاظ وإبدال بعضها مع بعض يوجب التئام الكلام ، وهو من أحسن نعوته ، وأزين صفاته "[xxxviii]

إن الشاعر الصانع المجود والمهذب لشعره يزيد شعره جودة وجمالاً بمراجعة نظره فيما أنتجه ، ليُقوم معوجه ، ويثقف مناداه ، بل إن ذلك من ضرورات الشاعر المُجيد ، وقد يبالغ بعض الشعراء في المعاودة والتثقيف ومراجعة النظر ، كما كان يفعل زهير وأضرابه كالحطيئة الذي أشار فيما سبق إلى أن خير الشعر الحولي المنقح المحكك .[xxxix] إذا فهؤلاء الشعراء يهذبون قصائدهم ويثقفونها تثقيفاً جيداً . " غير أن هذه الضروب من التطور بالشعروما داخلها من صور تجديد لم تنحرف بصناعته إلى مذهب جديد في صنع نماذجه ، فقد ظل المذهب القديم – مذهب الصنعة – الذي رأيناه في العصر الجاهلي ، ولكنه نما نموا واسعاً . فقد أقبل صُناع الشعر يبالغون في الاهتمام بحرفتهم ويوفرون لها كل ما يمكن من تجويد وتحبير، وعبروا عن ذلك تعبيرات مختلفة "[xl] .

وهذا يدل على أن شعراء الجاهلية كانوا ذوي قريحة عربية فصيحة ولم ينقصهم الطبع والفطرة البدوية ولكن عملية التنقيح والتهذيب جاءت نتيجة ثقافة هؤلاء الشعراء وحرصهم على قصائدهم والحصول على أفضل النتاج وأجوده .. فهذا بشار بن برد - الذي كان رأس المجددين والمحدثين في العصر العباسي الأول – يصرح ويؤكد بعنايته الشديدة في التثقيف وتنقيح قصائده واشعاره . وذلك حينما قيل له : " بم فُقت أهل عمرك ، وسبقت أهل عصرك في حسن معاني الشعروتهذيب ألفاظه ؟ قال : لأني لم أقبل كل ما تُورده عليَّ قريحتي ، ويناجيني به طبعي ، ويبعثه فكري ، ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسِرت إليها بفهم جيد ، وغريزة قوية ، فأحكمت سَبْرها ، وأنتقيت حُرّها ، وكشفت عن حقائقها ، واحترزت من متكلَّفها ولا والله ما ملك قيادي قطُّ الإعجاب بشيء مما آتي به "[xli] .

فصراحة بشاربن برد تدل على أن هؤلاء الشعراء لم ينقصهم الطبع ولكن التهذيب كانت من أجل اجادة قصائدهم وانتقاء أفضل الألفاظ والمعاني الجيدة والمتخيرة ، لأن الشاعر العربي منذ القدم عُرف بالتهذيب والتثقيف لأنه لا يكون حاذقاً وفحلاً حتى تفقد شعره وتراجعه - إلا ما ندر من الشعراء – ويعيد فيه نظره بامعان ودقة ، فيسقط منها رديئه ويثبت جيده . كما ورد في المقدمة لابن خلدون على لسان الأدباء والنقاد " وليراجع الشاعر شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ، ولا يضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة . فإن الإنسان مفتون بشعره ، إذ هو بنات فكره ، واختراع قريحته ، ولا يستعمل من الكلام إلا الأفصح من التراكيب ، والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها ، فإنها تنزل بالكلام على طبقة البلاغة " .[xlii]

إذاً " أنّ الصنعة اللفظية ، وجدت في العصر الجاهلي ولكنها كانت خفية إلى حدٍّ لا يكاد يدركها الشاعر أو يعتمدها ؛ لأحداث موسيقي في أبياته ، وعكس هذا ما أثر عن الشعراء المحدثين ، الذين اهتموا بالزخارف اهتماماً كبيراً ، وأولوها عنايتهم في شعرهم " .[xliii] ويعلل الفيلسوف الانجليزي ول ديورانت قضية الصنعة اللفظية بين العصر الجاهلي والعصر العباسي أي بين البادية والحضر بأنّ الشعر الذي كان يقال في الصحراء للبدو في العصر الجاهلي ، بدأ ينشد في حضور الخلفاء وحاشيتهم ولذا فلا بُدّ من العناية

والاهتمام به من حيث الناحية اللفظية والشكلية ولذلك يختلف الصنعة اللفظية بين العصر الجاهلي والعصر العباسي .[xliv]

أما القسم الآخر من الشعر المتكلف (المصنوع) عند ابن قتيبة فهو الذي يعرف بالتكلف ونرى فيه شدة العناء والتعب في صناعة القصيدة واضحاً وضوح الشمس في وضح النهار. فهؤلاء الشعراء الذين يتكلفون أنفسهم في صناعة القصيدة لا يحملون القدرة الكافية من الفطرة العربية البدوية والطبع السليم . ، كما يصرح سويد بن كراع عن معاناته وتعبه في صناعة الأشعاروتنقيحه جاءت في الشعروالشعراء :[xlv]

أبيت أبواب القوافي كأنما
أصادي بها سرباً من الوحش نزعاً
أكالئها حتى أعرِّس بعدها يكون
سحيراً أو بعيداً فأهجعا

فالشاعر هنا يُصرّح في قصائده - التي تحدث فيها عن صناعته للشعر – بطول التفتيش والتفكر ، وشدة العناء ، ومدى ما يقاسيه الشاعر في اخراج عمل أدبي يرضي به ذاته والجمهور . ولعله بعد هذا العناء الطويل لا يصل إلى مرتبة شعراء المطبوعين .[xlvi]

ويشير ابن قتيبة في نص آخر إلى شعر هؤلاء المتكلفون وشدة معاناتهم في صناعة أشعارهم وتكلفهم بقوله : " والمتكلف من الشعر ليس به خفاء على ذوي العلم ، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه .. " .[xlvii]

وقد رفع ابن قتيبة الستار عن شعر هؤلاء المتكلفين حيث لايخفى أشعارهم وقصائدهم عن أهل العلم والأدب من شدة العناء وطول التفكر وكثرة الضرورات الشعرية التي تؤدي في النهاية إلى تفكك القصيدة وتنافر أجزائها نتيجة حذف بعض المعاني حاجة إليه وإضافة بعض المعاني والمفردات دون الحاجة إليها . إذا معرفة أشعار المتكلفين ليس أمراً عسيراً أمام أهل العلم والنظر السديد لكثرة الضرورات الشعرية .. .

ولما تحدث ابن قتيبة عن موضوع الوحدة العضوية والموضوعية في القصيدة العربية تحدث مرة اخرى عن شعر المتكلف . فاشترط للقصيدة أن تكون متكامل البناء وملتحم الأجزاء وشديد الانتظام ، حيث قال : " وتتبين التكلف في الشعر أيضاً بأن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره ، ومضموماً إلى غير لفقه ، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : انا أشعر منك ، قال : وبم ذلك ؟ قال : لأني أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه . وقال عبدالله بن سالم لرؤبة : مت يا أبا الجُحاف غذا شئت ! قال رؤبة : وكيف ذلك ؟ قال : رأيت اليوم ابنك عقبة ينشد شعراً له أعجبني ، قال رؤبة : نعم ، ولكن ليس لشعره قرآن . يريد أنه لا يقارن البيت بشبهه " .[xlviii]

لذلك تظهر امارات التكلف في الشعر إذا لم يقرن البيت بجاره ولم يضمه بلفقه ، أي إذا لم تكن أبيات القصيدة متناسقة البنيان ومتلاحمة الأجزاء .. فتتفكك القصيدة وتتفتح الفجوات فيها .. إذاً فاقتران الأبيات بعضها من بعض تعد من سمات وملامح الشعر المطبوع لدى ابن قتيبة . والشعر المتكلف هو الشعر الذي يضطرب فيه المعاني ويتجسد فيه الفجوات وتتفكك أجزاء القصيدة بعضها عن بعض ثم تتخلل ترتيب أبيات القصيدة .

إذاً هناك فرق بين الصنعة والتكلف ، فالصنعة ليست خلافاً للطبع لأن شعراء المطبوعين كانوا يصنعون أشعارهم لالتحام أجزائها والقضاء على فجواتها واضطراب أبياتها .. بخلاف التكلف الذي يظهر في القصيدة شدة العناء والتعب وكثرة الفجوات والضرورات الشعرية ومعاناة الشاعر فيها بيّن ..

أما موقفه من الطبع فقد جاء على أكثر الشعراء الجاهلية فكانوا على الجبلة والفطرة البدوية العربية . فالطبع عند ابن قتيبة هو الأقتدار على نظام القوافي بسماحة الخاطر وفيض النفس مع سلاسة تفيض من الأبيات ، ورونق غير متكلف ، ونفس تجد ماتقول ، وفطرة ممتازة ، مع التوفيق إلى الإبانة المصقولة الواضحة .[xlix]

ولذلك يوضح مفهوم الطبع بقوله : " والمطبوع من الشعراء مَن سمح بالشعرواقتدرعلى القوافي ، وأراك في صدرعجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ، وإذا امتحن لم

يتلعثم ولم يتزحر " .[i] المطبوع هنا جاء بمعنى البداهة والارتجال ، وأنّه موهبة فطرية في نفس الإنسانية ، يمنحها الله للشاعر ، وتتمثل في الحضور البديهي والتدفق الشعري .

إذاً الشاعر المطبوع في نظره " هو الذي يأتي له الشعر عفواً ، أو ارتجالاً ، دون اعداد وتهذيب " .[ii] ويرى بدوي طبانة : أنّ " الارتجال الذي تبعثه حرارة العاطفة وقوة الإنفعال ، فلا شك في أنّه من أولى علامات الطبع " .[iii] يقصد هنا بالارتجال الذي تخرج نتيجة العاطفة وحرارة الوجدان الذي تكون من علامات الطبع وليس الطبع كله .

فيحدد ابن قتيبة مفهوم الطبع بمزاج الشاعر وقدرته الشعرية في تعدد الأغراض الشعرية وحالته النفسية واقتداره على غرض دون الآخر أو التفوق في الأغراض الشعرية كلها ، إذ يقول : " والشعراء ايضاً في الطبع مختلفون : منهم مَن يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء ، ومنهم مَن يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل . وقيل للعجاج : إنك لا تحسن الهجاء . قال : إن لنا أحلاماً تمنعنا أن نظلم ، وأحساباً تمنعنا من أن نُظلم ، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم ؟ .. وذو الرمة أحسن الناس تشبيهاً ، وأجودهم تشبيباً ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذاك أخّره عن الفحول ، فقالوا في شعره : أبعار غزلان ونقط عروس ! وكان الفرزدق زير النساء وصاحب غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب . وكان جرير عفيفاً عن النساء ، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيباً بهن ، وكان الفرزدق يقول : ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعري ، وما أحوجني إلى رقة شعره " .[iii]

فقد بيّن ابن قتيبة في هذا النص أن الطبع يختلف من شاعر إلى آخر ومن غرض إلى غرض آخر ، إذ أن منهم مَن يقتدر على المديح ولا يقتدر على الهجاء أو يقتدر على الرثاء دون الغزل أو العكس .. وهذا مرتبط بالحالات النفسية لدى الشاعر كما قيل قديماً أن الشعر لا يأتي إلا من وراء الغضب أو الطمع أو الشرب والطرب أو الشوق .. إذا للحالات النفسية أثر مباشر على شعر الشاعر من حيث متانته وسلاسته ، حتى أنه جعل للشاعر تارات معينة وأوقات محدودة يقال فيها شعراً مطبوعاً دون التكلف والعناء .. وعلق على قول العجاج بقوله : " وليس هذا كما ذكره العجاج ، ولا المثل الذي ضربه شكلاً ، لأن المديح بناء والهجاء بناء ، وليس كل بانٍ لضرب بصير بغيره " .[iv] لأن المديح فن خاص يحتاج إلى استعداد الفطري ، وميل نفسي بينما الهجاء لون آخر مخالف للمديح له ذوق نفسية معينة .[v] وأكد نظرته لما ضرب بذي الرّمة وجرير والفرزدق . إذاً هذه نظرة صائبة لأبن قتيبة وتسجل له " لأن الشعراء مختلفون في الطبائع والأمزجة والميل النفسي ، والاستعداد الذهني ، والركائز الفطرية التي هي الأساس العمل الأدبي ، ومصدر الإلهام في الشعر " .[vi]

وقد حدد ابن قتيبة أوقاتاً للشعر ويقول : " للشعر أوقات يسرع فيها أتيُه ، ويسمح فيها أبيُه . منها أول الليل قبل تغشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، ومنها يوم شراب الدواء ومنها الخلوة في الحبس والمسير " .[vii] ويقول أيضاً : " وللشعر دواع تحث البطيء ، وتبعث المتكلف ، منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الشراب ، ومنها الغضب " .[viii]

وأخيراً يذكر ابن قتيبة من الشعراء المولدين الذين يتمتعون بالطبع مثل بشار بن برد وأبي العتاهية وغيرهما بقوله : " وبشار أحد المطبوعين الذين كانوا لايتكلفون الشعر ، ولا يتعبون فيه ، وهو من أشعر المحدثين " .[ix] وقال في أبي العتاهية : " وكان أحد المطبوعين ، وممن يكاد يكون كلامه كله شعراً " .[x]

ثم ضرب أمثلة في الشعر المطبوع في كتابه ، وذكر شعراء فاضت قريحتهم بالشعر وسهل طبعهم ، حينما طُلب منهم أن يقولوا شعراً ، فلم يلبث أن جرى الشعر على ألسنتهم ، مثل ابن مطير حينما وصف غيثاً نزل في المدينة بداهة وارتجالاً عندما طلب منه الوالي ، في قصيدة طويلة . وقصة الشماخ أيضاً مع صحبه حين كانوا في سفرٍ ، فنزل الشماخ على القوم فقال شعره بداهة وإلهاماً .[xi] وقال عنه : " كان أرجز الناس على البديهة " .[xii] وذكر في ترجمة أبي نواس أيضاً بأنّ أحدهم أراد أن يختبره " ليعرف طبعه وسهولة

الشعر عنده ، فما كان منه إلا أن قال على البديهة " .[xiii] ويعلق محمد مندور على هذه الروايات التي ذكره ابن قتيبة في قسم المطبوع بقوله : و" من غريب الأمر أن يرى ابن قتيبة أنّ الارتجال فيه دليل الطبع " .[xiv]

من خلال الأمثلة يتبين عند ابن قتيبة أن الطبع تعني البداهة والارتجال وإلهام لدى الشاعر دون أن يثقف شعره بالتهذيب والتنقيح .. والحقيقة أنّ ابن قتيبة " مخطئ حين يفهم الطبع على أنّه ارتجال ، وليس الطبع في الواقع سوى السليقة والملكة الشعرية ، وليست الإثارة منافية للطبع بل إنّها منه " .[xv]

ولكن الصحيح أنّ " في الصنعة لا تختفي الموهبة الشعرية أو الطبع الشعري ، وكذلك لا يعني الطبع القدرة على الارتجال أو القول على البديهة ،ففرق بين الشعر المطبوع والشعر الذي يقال على البديهة ، دون تروّ . وربما كان الشعر مطبوعاً أو عليه رونق الطبع ، وقضى فيه صاحبه أياماً في عمله . ولكن لم يثقفه ، ولم يعد فيه النظر والفكر ليعدل بين ألفاظه ومعانيه " .[xvi]

وأخيراً يبرر إحسان عباس موقف ابن قتيبة ويناصره ويرى أنّه لم يخلط بين الطبع والصنعة بل إنّ قلة المصطلح النقدي الذي عنده جعلته يستعمل ثنائية الطبع والصنعة بمدلولات مختلفة وهذا خافٍ لدى الدارسين المحدثين . ووضح مفهوم التكلف بقوله : " فالتكلف حين يكون وصفا للشاعر مختلف عن (التكلف) حين يكون وصفاً للشعر . تقول شاعر (متكلِّف) – بكسر اللام – وتعني ما نعنيه حين نقول إنه (صانع) ولهذا يقول ابن قتيبة : (فالمتكلف (من الشعراء) هو الذي قوّم شعره بالثقاف ونقّحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة ..) . ولا نظن أن ابن قتيبة يسترذل شعر زهير والحطيئة أو يراهما دون مَن يسميهم (الشعراء المطبوعون) . وتقول (شاعر مطبوع) وتعني في ذلك ما نعنيه اليوم بعفوية القول وتدفقه – يقول ابن قتيبة (والمطبوع من الشعراء مَن سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدريته عجزه وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر) ؛ وهذا يعني أن الطبع يشمل القول على البداهة مثلما يشمل (الصنعة الخفية) التي تظهر على وجه الأثر الفني . فإذا قلت (شعر متكلَّف) – بفتح اللام المشددة – عنيت ظهور (التفكر وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني إليه حاجة وزيادة ما بالمعاني غنى عنه) . وهذا يقابل ما نسميه (رداءة الصنعة) وليس كذلك شعر المنقحين أمثال زهير وحطيئة ، على أن بعض المتكلَّف من الشعر قد يكون جيداً محكماً – في رأى ابن قتيبة – ولكن لا أظنه يعني : ما تكثر فيه الضرورات وما فيه حذف للضروري وإثبات لما يمكن الاستغناء عنه ، وكيف يكون في هذا الجيد المحكم ، وهو مخلّ بأبسط مقتضيات البلاغة ؟ ... ومن ثَمّ يتضح لنا تماماً أن لفظة المتكلّف إذا اقترنت بالشاعر عنّت شيئاً متميزاً عن معناها حين يوصف بها نوع من الشعر ، ولذلك قال ابن قتيبة في وصف أبيات للخليل (وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة) " .[xvii]

نؤيد ما قاله إحسان عباس بحق ابن قتيبة لفصله بين الصنعة والتكلف لأنه لما علق على أبيات خليل بن احمد الفراهيدي الذي جعلها في الضرب الرابع الذي تأخر لفظه ومعناه ، بقوله : " وهذا الشعر بيّن التكلف رديء الصنعة .. " . فعبارة رداءة الصنعة عند ابن قتيبة مرادفة للتكلف ، فهذا يدل على أنّ هناك الصنعة الجيدة في الشعر كصنعة زهير والحطيئة وأشباههما في الشعر . كما يقول ابن رشيق في العمدة بقوله : " والمصنوع وإن وقع عليه هذا الأسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تَعَمُّل ، لكن بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف : يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك " .[xviii]

استعمل ابن المعتز لفظة المطبوع بحق طائفة من شعراء طبقاته ، إذ وصف كثيراً منهم بهذه الصفة كأنها من سمات الفحولة عنده .

فكثرة ورود كلمة الطبع على صيغة المفعول في كتابه طبقات الشعراء يدل على إلمامه الزائد بهذا المصطلح . وكان يفضل أصحاب الطبع على أصحاب الصنعة والتكلف ، وإن لم يذكرهما إلا قليلاً . .

وفي ترجمة أبي عُيينة أشار إلى أطبع شعراء العرب مطلقا منذ العصر الجاهلي إلى عصره وهم أربعة شعراء محدثين وكان أبو عُيينة واحداً منهم ، إذ قال : " وأبو عُيينة أحد المطبوعين الأربعة الذين لم يُرَ في الجاهلية والإسلام أطبع منهم : وهم بشار وأبو العتاهية والسيد وأبو عُيينة " . [xix]

وهذا يدل على مدى إعجاب ابن المعتز بشعراء المحدثين وتفضيلهم على سائر شعراء العرب .

وكان الشعراء في الطبع عنده مختلفون ، منهم مقتدراً في عموم الشعر أو أغلبه مثل بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية وغيرهم . .

و كما أشار في ترجمته لبشار بن برد إلى طبعه الجيد وعدم تكلفه ، الذي قال فيه : " وكان مطبوعاً جداً لا يتكلف ، وهو أستاذ المحدثين وسيّدهم ، ومَن لا يُقدّم عليه ، ولا يجارى في ميدانه " . [xx]

ويؤكد ابن المعتز في هذا النص أنّ بشار بن برد من المطبوعين المجيدين وليس عنده من التكلف شيئاً . وهذا يدل على أقتدار بشار في أكثر الأغراض الشعرية دون تكلف وعناء .

و وصف أبا نواس بأنّه : كان " آدب الناس وأعرفهم بكل شعر، وكان مطبوعاً ، لا يستقصي ، ولا يحلل شعره ولا يقوم عليه ، ويقوله على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو في الثريا جودة وحسناً وقوة ، وما هو في الحضيض ضعفاً وركاكة " . [xxi]

ويتبين في هذا النص أنّ أبا نواس كان من الشعراء المطبوعين ، ولا يبحث عن كلمات ومعانٍ ليضيفه إلى أشعاره ولا يقوم أشعاره ولا يحلله ، بل يقوله غالباً في السكر ومجالس الخمرية . وهذا سبب تفاوت أشعاره من حيث الجودة والركاكة والضعف .

وقال في أبي العتاهية أيضا : كان " أحد المطبوعين ، وممن كاد يكون كلامه شعراً كله ، وغزله كله ليّن جداً مشاكل لكلام النساء ، موافق لطباعهن ، وكذلك كان عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، والعباس بن الأحنف .. " . [xxii] ويقول في نص آخر معلقاً على قدرة أبي العتاهية وسهولة مخرجه وطبعه ، بقوله : " كان أبو العتاهية ، لسهولة شعره وجودة طبعه فيه ، ربما قال شعراً موزوناً ليس من الأعاريض المعروفة ،وكان يلعب بالشعر لعباً ،ويأخذ كيف شاء ". [xxiii]

ومنهم مَن يقتدر على الرجز والقصيد كأبي نُخَيلة الراجز والعماني . والذي ذكر في ترجمة أبي نُخيلة بقوله " كان من أفصح الناس وأشعرهم ، وكان مطبوعاً مقتدراً كثير البدائع والمعاني غزيراً جدّاً ، وكان الغالب عليه الرجز ومع ذلك لا يقصّر في القصيد " . [xxiv]

أما العماني فقال عنه كان : " شاعراً قديماً مفلقاً مطبوعاً مفيداً ، وكان جيد الرجز والقصيد غير أن الأغلب علي الرجز " . [xxv] ثم قال عنه : " وكان يُوزن بالعجاج ورؤبة ، بل كان أطبع منهما . " [xxvi] .

وهنا يكشف ابن المعتز مرة أخرى عن مذهبه الذي كان يفضل فيه العماني عن العجاج وابنه رؤبة ، لأنّه أطبعهم . .

ومنهم مَن لا يؤاتيه الطبع إلا في غرض من الأغراض الشعرية فقط كربيعة الرقي الذي قال فيه : " فأما شعره في الغزل فإنه يفضل على أشعار هؤلاء من أهل زمانه جميعاً وعلى كثير ممن قبله ، وما أجد أطبع ولا أصح غزلاً من ربيعة " . [xxvii]

لذا " قد يُرى الشاعر المطبوع مجيداً في فن من فنون الشعر دون غيره ، فقد يجيد في المديح دون الهجاء ، أو يجيد في المراثي دون التهاني ، والعكس صحيح " . [xxviii]

ويرتبط الطبع أحياناً بالبديهة والارتجال عند المصنف ، كأنّه لم يميز بينهما ، وشأنه شأن نقاد عصره . والذي قال في ترجمة أبي دُلامة بقوله : " وكان أبو دُلامة مطبوعاً مفلقاً ظريفاً كثير النوادر في الشعر ، وكان صاحب بديهة ، يداخل الشعراء ويزاحمهم في جميع فنونهم .. " . [xxix]

أما الصنعة والتكلف فلم يكن اهتمامه به ملفت للنظر وإنما أشار إليه بإشارات يسيرة ونادرة

مقارنة بذكره لمصطلح الطبع وتناوله ومنها ، ما قاله في ترجمة مروان بن أبي حفصة بأنه من " المجيدين المحككين للشعر " . [xxx] فهذا يدل على جودة الصنعة لدى مروان بن أبي حفصة في الشعر وهو من أنصار وأتباع مدرسة الصنعة في العصر العباسي ، لأن عبارة (من المجيدين المحككين للشعر) تدل على أنّ هناك أكثر من شاعر ينتمي إلى المدرسة الصنعة والتنقيح في العصر العباسي ، وربما كان ينتميه إلى مدرسة زهير وأتباعه في العصر الجاهلي . وكان ابن المعتز يعي تماماً باختلاف الصنعة من التكلف لأن جودة الصنعة من سمات شعراء الفحول منذ الجاهلية أمثال زهير والحطيئة وأشباههما فهؤلاء الشعراء لا يفتقرون إلى الطبع بل كانوا ينقحون أشعارهم ويثقفونه على أساس الدربة والخبرة . إذا جودة الصنعة ليست صفة مذمومة للشاعر وليست نقيضة للطبع بل تناصره وتلازمه . .

وقال معلقاً على قصيدة للحسين بن مُطير: كأنه " الديباج ، بل نظم الدرّ في حسن وصف ، وإحكام رصف " . [xxxi] وقد وصف شعر الحسين بجودة الصنعة وجمال وصف ، وقوة رصفه للكلمات .. كما أنه أشار إلى براعة الصنعة عند ابراهيم بن اسحاق الموصلي في ترجمته قائلاً: بأنه " خدم خمسة من الخلفاء بظرفه وأدبه وبراعته في صناعته .. " . [xxxii] إن عبارة براعته في صناعته في هذا النص ، دلالة على قدرة الشاعر وموهبته في نظم الشعر وصناعته.

أما التكلف فهو صفة مذمومة للشاعر وهو من إمارات الضعف والركاكة لدى الشاعر وعدم القدرة في نظم الشعر. وقال في ترجمة يعقوب التَّمَّار: بأنه " من المعروفين فيمن حوى جودة الطبع وقلة التكلف " . [xxxiii] فهذه العبارة عن التّمّار يدل على ثقافة ابن المعتز في تميزه بين الصنعة والتكلف واختلافهما مع الطبع . ويؤكد على وجود نسبة قليلة من التكلف عند هذا الشاعر. وقال في ترجمة خالد النجار بأنه " كان مطبوعاً مقتدرا مفوها منطقيا لا يتكلف كما يتكلف غيره من الشعراء " . [xxxiv] وكما قال في ترجمة بشار أيضا بأنه : " كان مطبوعا جدا لا يتكلف " . [xxxv] إن إشارة ابن المعتز إلى قلة التكلف أو عدم التكلف أو لا يتكلف كما يتكلف غيره من الشعراء في هذه النصوص ، تدل على وجود شعراء كانوا يتكلفون في العصر العباسي ، بسبب انتشار البديع في هذا العصر ، كما يقول الاستاذ طه احمد ابراهيم : " إن صاحب البديع يفكر مرتين : مرة للفكرة ، ومرة لتحويرها والتلطف بها حتى تسكن للبديع . ومن المعلوم أنّ الصياغة حركة ذهنية عند الكاتب والشاعر ، فإن تعقدت هذه الحركة لم يكن لنا أن ننتظر إلا عبارات معقدة ، وإلا نفَسَ ـَـَـَاً فاتراً ، كلما همَّ بالاطِّراد وقف به الحرص على الزخرف ، وحال بينه وبين الجيشان والاسترسال تلمُّسُ المحسنات ، ولذلك فإن التكلُّف أول ظاهرة في شعر المحدسين " . [xxxvi]

لذا في ترجمة مسلم بن الوليد ذكر أبي تمام وسوء استخدامه للبديع في أشعاره لأن البديع كالملح إذا زاد نسبته في الشعر يفسده ، ويقول : " كان مسلم بن الوليد صريع الغواني مداحاً محسناً مجيداً مفلقاً ، وهو أول مَن وسع البديع ، لأن بشار أول مَن جاء به ، ثم جاء مسلم فحشا به شعره ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه وتجاوز المقدار " . [xxxvii]

إن تجاوز مقدار نسبة البديع في الشعر والإفراط في استعماله لا تدخل إلا في التكلف ورداءة الصنعة . فرواية ابن المعتز هنا جاءت لنقد أبي تمام لكثرة البديع في أشعاره ، وإن كان ابن المعتز من أنصار مدرسة البديع ولكن يكره تجاوز نسبة البديع والمبالغة فيه . لأنّها تدخل في باب التكلف والتصنع . ومن الغريب لانجد لابن المعتز حديث عن الصنعة والتكلف كقضية من القضايا النقد الأدبي في طبقاته ، لا سيما أنّ له كتاب البديع . و البديع جزء مهم من الصنعة . [xxxviii]

وأخيراً وإن لم يفصح ابن المعتز عن سمات وإمارات ثنائية الطبع والتكلف (الصنعة) إلا أنه كان واعياً بطرحه وتناوله لهذه الثنائية .. و كان يفضل الطبع على الصنعة والتكلف لأنه وصف جملة من شعراء طبقاته بالطبع والارتجال .

أما أبو زيد القرشي فلم نجد عنده ما يخص الطبع والصنعة والتكلف في جمهرته وتقسيمه السباعي ، لأنه اختار القصائد المختارة والفريدة من نوعها في عصري الجاهلي والإسلامي . لذلك لم يتحدث عن

ثنائية الطبع والتكلف لأنه اختار القصائد المختارة التي تتميز بالطبع في العصر الجاهلي والإسلامي .

خاتمة البحث

في نهاية هذا البحث توصلنا إلى النتائج الآتية :

- إنّ الطبع والصنعة من المعايير الأساسية في تقسيم الشعراء وتفاضلهم في القرن الثالث الهجري .
- الطبع هو الأصل عندهم ومدار الشعر حوله ، لأن الطبع هو الموهبة بالفطرة والغريزة التي يأتي الشعر به ، ومن دون الطبع لا يقدر الإنسان أن يكون شاعراً .
- الصنعة ليست متناقضة للطبع لأن آلة الصنعة هي الدربة والقراءة والرواية وتثقيف ذات الشاعر وإتقان الفن الشعري من حيث الشكل والمضمون . لذلك عدّ النقاد الصنعة متلازماً للطبع ومتكاملاً له . إذا فالطبع موهبة الله وفطرة غريزية وهبه الله للشاعر ، أما الصنعة فهي مكتسبة تلازم الطبع وتناصره .
- اتهم الباحثون ابن قتيبة بأنّه لم يميز بين الصنعة والتكلف وبين الطبع والارتجال ، وسبقه إلى ذلك كل من الأصمعي والجاحظ . إلا أنّ هناك من النقاد مَن يبرر عملهم لقلة المصطلح النقدي لديهم الذي جعلهم يستعملون هذه المصطلحات بمدلولات مختلفة . لذلك يرون أنّ ابن قتيبة كان مدركاً لفصله بين الصنعة والتكلف لأنه من غير المعقول أن يستزل شعر زهير والحطيئة . .
- وصف ابن المعتز عددا كبيراً من شعراء طبقاته بالطبع والفطرة ، أما الصنعة والتكلف فلم يشر إليهما إلا نادرا ، ولم يفصح عن التمييز بينهما مع الطبع .

الهوامش

(i) فحولة الشعراء : عبدالملك بن قريب الأصمعي ، تحقيق : ش . توريّ ، قدم لها : صلاح الدين المنجد، ط1 ، دار الكتاب الجديد ، بيروت – لبنان ، 1389ه – 1971م : 16

(ii) الشعر و الشعراء : ابن قتيبة : تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، د.ت : 1 / 9 ، 18

(iii) البيان والتبين : أبي عثمان عمروبن بحر الجاحظ : تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون : ط7 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1418ه – 1998م : 1 / 206

(iv) ينظر : تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري : د.محمد زغلول سلام : دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، د.ت : 53 .

(v) الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني : تحقيق : علي النجار ، المكتبة العلمية ، بيروت ، (ت.د)، 3 / 283

(vi) فحولة الشعراء : تحقيق : ش . توري : 9

(vii) البيان والتبين : الجاحظ : عبد السلام محمد هارون : 2 / 13

(viii) الوساطة بين المتنبي وخصومه : الجرجاني : 53

(ix) ينظر : الأصمعي والنقد الأدبي : د. أياد عبد المجيد ابراهيم ، ط1 ، مؤسسة الوراق ، عمان – الأردن ، 2002م : 131 .

(x) فحولة الشعراء : تحقيق : ش . توري : 16

(xi) طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلّام الجمحي : تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، القاهرة ، مصر، (د.ت) : 1 / 5

(xii) دراسات في النقد الأدبي العربي : بدوي طبانة : 171

(xiii) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : شوقي ضيف : ط13 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، د.ت : 20

(xiv) طبقات فحول الشعراء: 55/1.

(xv) المصدر نفسه : 1/ 56

(xvi) النظرية النقدية عند العرب : هند حسين طه : دار الرشيد ، بغداد ، 1981م : 167

(xvii) الورقة : لأبي عبدالله محمد بن داود بن الجراح : تحقيق : عبدالوهاب عزام ، وعبدالستار احمد فراج ، ط3 ، دار المعارف ، القاهرة ،(د.ت) : 49 ، وينظر : مجلة المورد : 131

(xviii) البيان والتبين : الجاحظ : عبد السلام محمد هارون : 3 / 28

(xix) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني : تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، (د.ت) : 1 / 129 .

(xx) المصدر نفسه : 2 / 13

(xxi) البيان والتبين : الجاحظ : عبد السلام محمد هارون : 1 / 50

(xxii) البيان والتبين : الجاحظ : عبد السلام محمد هارون : 1 / 50

(xxiii) المصدر نفسه : 1 / 50

(xxiv) المصدر نفسه : 2 / 9

(xxv) المصدر نفسه : 2 / 13 – 14 .

(xxvi) ينظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي : شوقي ضيف : 20 – 21

(xxvii) ينظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي : شوقي ضيف : 20

(xxviii) أضواء النقد العربي على مذهب البحتري واصوله الفنية : محمد عبدالله الزايدي : 12

(xxix) ينظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي : شوقي ضيف : 20

(xxx) الشعر والشعراء : 1 / 78

(xxxi) المصدر نفسه : 1 / 22

(xxxii) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : عبدالعزيز عتيق : 272 .

([xxxiii]) ينظر : النقد المنهجي عند العرب : محمد مندور : 40 – 41 .
وينظر : دراسات في النقد الادب العربي : بدوي طبانة : 230 – 231 .
وينظر : تاريخ النقد العربي : محمد زغلول سلام : 53 .
([xxxiv]) نقد الشعربين ابن قتيبة وابن طبا طبا العلوي : د.عبدالسلام عبدالحفيظ عبد العال ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1978م : 169 .
([xxxv]) ينظر : النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم أحمد حسين ، ط1 ، مطبعة الجامعة الاسلامية ، ماليزيا ، 2008م : 87 – 88
([xxxvi]) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد : 1 / 200
([xxxvii]) ينظر : النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم أحمد حسين : 89 – 90
([xxxviii]) الصناعتين لأبي هلا العسكري : تحقيق : محمد علي البجاوي ، وابراهيم أبو الفضل ،ط1 ، المكتبة العسصرية ، صيدا – بيروت ، 1427 هـ – 2006م : 135
([xxxix]) ينظر : النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم أحمد حسين : 90 – 91
([xl]) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : شوقي ضيف : 35
([xli]) زهر الآداب : الحصري القيرواني : تحقيق : صلاح الدين الهواري ، المطبعة العصرية ، صيدا – بيروت ، 1426 ه – 2005م:146/1
([xlii]) المقدمة : لابن خلدون : 1106 – 1107
([xliii]) النظرية النقدية عند العر ب : هند حسين طه : 166 .
([xliv]) ينظر : قصة الحضارة : ول ديورانت : 3 / 226
([xlv]) الشعر و الشعراء : 1 / 22 – 23
([xlvi]) ينظر : النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم أحمد حسين : 91
([xlvii]) الشعر و الشعراء : 1 / 32
([xlviii]) المصدر نفسه : 1 / 33 – 34
([xlix]) ينظر : النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم أحمد حسين : 95
([l]) الشعر و الشعراء : 1 / 34 أو 91
([li]) النقد الأدبي عند العرب : عبدالعزيز عتيق : 273 .
([lii]) دراسات في النقد الأدبي العربي : بدوي طبانة : 230
([liii]) الشعر و الشعراء : 1 / 37 – 38
([liv]) الشعر و الشعراء : 1 / 37 – 38
([lv]) ينظر : ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية : د. محمد رمضان الجربي ، ط1 ، المنشآة العامة ، طرابلس – الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية ، 1393ه – 1984م : 206 .
([lvi]) ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية : د. محمد رمضان الجربي : 206 .
([lvii]) الشعر و الشعراء : 1 / 81
([lviii]) المصدر نفسه : 1 / 78
([lix]) المصدر نفسه : 2 / 745
([lx]) المصدر نفسه : 2 / 779
([lxi]) ينظر : المصدر نفسه : 1 / 34 – 36

([lxii]) الشعر و الشعراء : 1 / 317 .
([lxiii]) الشعر و الشعراء : 2 / 798 .
([lxiv]) النقد المنهجي عند العرب : د. محمد مندور : 46 .
([lxv]) ابن قتيبة العالم الناقد الاديب : عبدالحميد الجندي ، 344 .
([lxvi]) تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري : د.محمد زغلول سلام : دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، د.ت ، 119
([lxvii]) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن لهجرة : احسان عباس ، ط1 ، دار الشروق ، عمان – الأردن ، 2006م : 97 – 98 .
([lxviii]) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني : تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد : 1 / 129 .
([lxix]) طبقات الشعراء : ابن المعتز : تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، ط4 ، دار المعارف ، القاهرة ، (د.ت) : 290 .
([lxx]) المصدر نفسه : 24 .
([lxxi]) المصدر نفسه : 194 – 195
([lxxii]) المصدر نفسه : 228
([lxxiii]) المصدر نفسه : 229
([lxxiv]) طبقات الشعراء : ابن المعتز : تحقيق : عبدالستار أحمد فراج : 63 .
([lxxv]) المصدر نفسه : 110
([lxxvi]) المصدر نفسه : 115
([lxxvii]) طبقات الشعراء : ابن المعتز : تحقيق : عبدالستار أحمد فراج : 159 .
([lxxviii]) المثل السائر : ابن أثير : 1 / 8 .
([lxxix]) طبقات الشعراء : ابن المعتز : تحقيق : عبدالستار أحمد فراج : 54 .
([lxxx]) المصدر نفسه : 45
([lxxxi]) المصدر نفسه : 115
([lxxxii]) المصدر نفسه : 359
([lxxxiii]) المصدر نفسه : 411
([lxxxiv]) المصدر نفسه : 449 .
([lxxxv]) المصدر نفسه : 24 .
([lxxxvi]) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري : طه أحمد ابراهيم ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1405 ه – 1985م : 101 – 102 .
([lxxxvii]) المصدر نفسه : 235
([lxxxviii]) ينظر : النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم احمد حسين : 140 .

المصادر

1. ابن قتيبة العالم الناقد الأديب : عبدالحميد سند الجندي ، مؤسسة المصرية العامة ، القاهرة . د.ت .
2. ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية : د. محمد رمضان الجربي ،

ط1 ، المنشآة العامة ، طرابلس – الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية ، 1393هـ – 1984م .

3. الأصمعي والنقد الأدبي : د. أياد عبد المجيد ابراهيم ، ط1 ، مؤسسة الوراق ، عمان – الأردن ، 2002م .
4. البيان والتبين : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون : ط7 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1418 هـ – 1998م
5. تاريخ النقد الأدبي عند العرب : د.عبدالعزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت – لبنان ، 1431 هـ – 2010م .
6. تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري : طه أحمد ابراهيم ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1405 هـ – 1985م .
7. تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن لهجرة : احسان عباس ، ط1 ، دار الشروق ، عمان – الأردن ، 2006م .
8. تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري : د.محمد زغلول سلام : دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، د.ت .
9. الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني : تحقيق : علي النجار :(ط.د) ، المكتبة العلمية ، بيروت ، (ت.د) .
10. دراسات في النقد الأدب العربي من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري : د. بدوي طبانة ، ط6 ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، 1394 هـ – 1974م .
11. زهر الآداب : الحصري القيرواني : تحقيق : صلاح الدين الهواري ، المطبعة العصرية ، صيدا – بيروت ، 1426 هـ – 2005م .
12. الشعر والشعراء : ابن قتيبة : تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، د.ت
13. الصناعتين : أبي هلال العسكري : تحقيق : محمد علي البجاوي ، وابراهيم أبو الفضل ،ط1 ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، 1427 هـ – 2006م .
14. طبقات الشعراء : ابن المعتز، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، ط4 ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، 1981م .
15. طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلّام الجمحي : تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، القاهرة ، مصر ، د.ت .
16. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، د.ت .
17. فحولة الشعراء : الأصمعي ، تحقيق : ش. توري : قدم لها د.صلاح الدين المنجد ، ط1 ، دار الكتاب الجديد ، بيروت – لبنان ، 1389 هـ – 1971م .
18. الفن ومذاهبه في الشعر العربي : شوقي ضيف : ط13 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، د.ت .
19. النظرية النقدية عند العرب : هند حسين طه : دار الرشيد ، بغداد ، 1981م
20. نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طبا طبا العلوي : د. عبدالسلام عبدالحفيظ عبد العال ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1978م .

21. النقد المنهجي عند العرب : د. محمد مندور ، دار النهضة مصر الفجالة – القاهرة ، 1972م .
22. النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم أحمد حسين ، ط1 ، مطبعة الجامعة الاسلامية ، ماليزيا ، 2008م
23. الورقة : لأبي عبدالله محمد بن داود بن الجراح : تحقيق : عبدالوهاب عزام ، وعبدالستار احمد فراج ، ط3 ، دار المعارف ، القاهرة ، (د.ت) .
24. الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني : تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، ط1 ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، 1427 هـ – 2006م .
25. أضواء النقد العربي على مذهب البحتري واصوله الفنية : محمد عبدالله الزايدي ، رسالة ماجستير ، 1980م
26. نصوص من كتاب طبقات الشعراء لدعبل الخزاعي : محمد جبار المعيبد ، مجلة المورد ، المجلد السادس ، العدد : الثاني ، 1397 هـ – 1977م .